



ما بعد الطبيعة الحياة

للسيد محمد حسن البقاعي

— ٢ —

إن الإنسان ليشاءل فيقول : ما هو أساس الحياة ؟ ترى هل هو نموّ الحسّ وحركته وألمه وعضويته ؟ فهذه المسألة لا يمكن الجواب عليها إلا بالاستعانة بالعلم والفلسفة . على أن البحث في الحياة ليس إلا التفتيش عن الحى هل هو ناشئ عن مادة أو هل الحياة للوجود في الجسد مُحَصَّلَةٌ لأمور مادية أم خاضعة لمبدأ وروحى عقلى ؟

ولعمري إن النوص في بحث الحياة وسبر غورها ليتطلب البحث في النظريات التي وضعها الفلاسفة من القرون الأولى حتى عصرنا الحاضر . وهذه النظريات على نوعين :

(١) النظريات الآلية Mècanisme

(٢) النظريات الحركية Dynamisme

أما خلاصة ما يقوله واضعو النظريات الآلية فهي : إنه من الممكن تحليل الحياة بالخواص الموجودة في كل نوع من أنواع المادة ، أى يمكن تحليل الحياة بالحركة التي تصحب المادة . فقد قال (فاندال) : « ليس تشكل نبات أو حيوان أو تبلور إلا حادثة ميكانيكية لا تختلف عن قضايا الميكانيك الاعتيادية إلا أن العناصر فيها بسيطة جزئية » على أن كيفية الحركة مركبة ، فهي تمل كل شيء بالمادة ، مثال ذلك : تركيب الماء من (H²O) ليس هو إلا تركيباً مادياً ويدعمون نظريتهم هذه بسلسلة من الأدلة الطبيعية الدليل الأول : إننا نستطيع إرجاع كل شيء من مظاهر المادة إلى حركة ، فالحرارة والنور يرجعان إلى اهتزاز وحركات

فيلم لا نعتبر الحياة مثلها وترجمها إلى الحركات ؟
الدليل الثانى : إن مبدأ (لا توازيه Lavoisier) المشهور ، والمعروف بمبدأ حصانة المادة وبقاؤها لخير دليل على أن الأجساد الحية لا يوجد فيها شيء غير المواد الكيميائية التي تنتج بتحليلها تحليلاً كيميائياً ، إذ أننا لو وزنا المواد الحاصلة بعد التحليل الكيميائى ووزنا الجسم المحلل قبل ذلك لوجدنا هناك تمازلاً

الدليل الثالث : كأننا يعلم أن التركيب الكيميائى يعطى مركبات ذات خواص لا توجد في العناصر المركبة ، فتركيب كلور الصوديوم (Cl Na) من الكلور والصوديوم يكسب المركب خواص مغايرة لخواص كل من عنصريه (Cl) ؛ (Na) فيلم لا تكون الحياة مركباً ناشئاً من مركبات مختلفة ؟

الدليل الرابع : لقد سمحت لنا التجارب الحديثة بمشاهدة بعض المماثلات والتناسبات القريبة بين بعض صور الوجودات الحية وبين صور بعض الأجسام البلورية ؛ فمن هنا ترى أنه يمكن إيضاح الحياة ميكانيكياً مثلها

ولكن هذه الأدلة لم تسلم من الاعتراض ؛ فقد اعترض عليهم بعض الفلاسفة فقالوا : (إن العلماء حتى اليوم لم يستطيعوا أن يركبوا الحياة) غير أن هذا الاعتراض يستند إلى أساس أو هي من بيت المنكوبات . وهذا الأساس ليس إلا تلك التجربة التي قام بها (باستور) وأثبت عدم إمكان التوالد العضوى . فإذا لم يوصلنا العلم حتى الآن إلى تركيب جسم حى فلا بد أننا في المستقبل نستطيع ذلك . على أن كلام باستور : (إن الحى لا يتولد إلا من الحى) لا يمكن أخذه كبداً أساسى مادام العلم في ارتقاء وتقدم مستمرين ، وها هو (لينبىز Léibniz) يقول : إن كل شيء في العالم يحدث ميكانيكياً . ولكن يجب أن نرتق إلى مبدأ أعلى ، وهو المبدأ الميتافيزيكي ليتجلى لنا إيضاح الميكانيكية نفسها : على أن في الحياة نظاماً واتساقاً خاصاً لا يمكن

تعليله في الحياة الميكانيكية فقط ؛ مع أننا لا ننكر أن كثيراً من الحوادث الحيوية يمكن تعليلها بالحوادث الميكانيكية . فقد قال (كلود برنارد Claude Bernard) : ليس تكوّن الجسم الحيوي من مجموعات عناصر كيميائية هو كل ما يمتاز به ، بل هو الحياة أي القوة الحيوية التي لا توجد في الكيمياء ، كأجسام أعضائنا كل منها إلى غاية كفاية القلب وغاية المدة ... فنحن في هذه النظرية في عالم الافتراض ؛ لذلك نقول : إن كلاً من هاتين النظريتين : الميكانيكية والديناميكية تستطيع دحض الأخرى وتقويضها

ولقد اعترض (هنري برغسون H. Bergson) على نظرية الميكانيكية فقال : الحياة كلها إبداع فهي مبدعة : أي أن تيار الحياة يأتي دائماً بالجديد . فالحوادث الحيوية فيها عدم تنبؤ (Imprévisibilité) ولا يمكننا أن نتنبأ بأن الأحقاد فيهم صفات الأجداد ، وهذا ما يدعونا إلى عدم إيضاح الحياة

وزيادة على ذلك فإن الحوادث الحيوية الموجودة في الجنين لا يمكن إيضاحها بصورة ميكانيكية : فترى أن الشبكة العينية عند ذوات الفقرات ناشئة عن اتساع القسم الدماغي في الرشم الحدب بينما هي عند النواعم مشتقة من الأدمة أي من الخارج بصورة مباشرة لا بواسطة الدماغ . ومن هنا ترى أن المعضو الواحد في حيوانات مختلفة لا يتشكل من نفس المنصر . والسبب في ذلك لا يمكن تعليله بالعناصر الميكانيكية في الرشم ولا بشروط الإقليم والبيئة الموجود فيها الرشم . فتجدنا مضطربين إلى افتراض مبدأ مسيطر أي غاية وأجاء . وإذا اعترضنا على الميكانيكية والحركية هل نصل إلى شاطئ الصواب ؟ كلا ! فلا يسعنا حل هذه المسألة إلا الرجوع إلى نظريات غير الحركية والآلية علنا نقرع باب الحقيقة ونلمسها بأناملنا العشر . فلنبدأ بذكر النظرية الحيوية (Vitalisme) فنقول : إن أصحاب هذه النظرية هم لروه (P. Leroux) وبارتس) وكافة أطباء مدرسة (مونيبييه) وهم يعتقدون أن الحياة لم تنشأ إلا عن مبدأ خاص لا روح ولا شيء آخر ، بل هو مبدأ حيوي وسط بين الروح والجسد ... وقد تتجلى للقارى قيمة هذا التعليل بمجرد ذكره فهو بدلاً من أن يوصلنا إلى حل هذه المسألة ؛ أوجد لنا معضلة أخرى لذلك فإن الحيويين مثل (بروسن) و(كابانيس Cabanis) وغيرهما من مدرسة باريس غيروا رأيهم

فقالوا : ليست الحياة ناشئة عن مبدأ مفارق للجسد والروح ؛ ولا عن خواص المادة . بل هي ناشئة عن خواص معينة حيوية من نوع ثابت معين موجود في الجسد ، أي أن المادة فيها خاصة الحياة عدا خواصها المعروفة . وإذا عرّجنا الآن على نظرية المعنوية القائلة : (إن الحياة هي وجود الأعضاء في الجسم على هذه الصورة فهذا الوضع هو الذي أكسبها خاصة الحياة) نجد أننا لم نزل في غياهب جهل بمحقيقة الحياة ؛ بل كدنا أن نرتبك أكثر مما كنا فيه . إذن فلنبحث الآن في النظرية النفسية (Psychologisme) وهي النظرية التي تقول : (النفوس مبدأ الحياة الاساسي) . فإن الحياة تفارق الجسد عند ما تفارقه النفس ، وهي مبدأ العقل أيضاً فإننا نجد علاقة صحيحة بين الحياة العاقلة والحياة المادية أي أن مبدأ العقل هو مبدأ الجسد . ويثبت أصحاب النظرية النفسية رأيهم هذا بوجود الوحدة في الجسد بالرغم من هذه الكثرة ، فبما أن في النفس غاية واحدة فهي إذن المبدأ الأول للحياة ولا يمكننا إيضاح هذه الوحدة وهذا التناسق إلا بهذه الغاية الواجحة ، ألا وهي النفس . على أننا لا نعرف بأية صورة تؤثر الروح في الجسد ؛ وهذا الأمر شغل كثيراً من علماء النفس وعلماء الاجتماع والفيسيولوجين ، ولم يستطيعوا التوصل إلى حل معقول . فنحن إذن لا نزال في عالم الفرضيات ؛ أضف إلى ذلك ما يمرضه بعض الفلاسفة على أصحاب هذه النظرية من الأسئلة ، فقد قالوا : إذا كانت النفس لها تلك القدرة التي يسندونها إليها — أي هي التي تسمى الجسد — فلماذا تتركه يفسد فيزول أو يمرض ؟ وكيف توضح الحوادث التي تحدث في الجسد بعد مفارقة الروح له كأن يطول الظفر بعد الموت وينمو الشعر ؟ وماذا نقول إذا علمنا أن بعض البوليب التي تعيش في المياه الحلوة إذا قطعت بصورة عرضية ، أي إذا شطرت شطرين ، يكون كل شطر منهما ذا حياة جديدة ويعيش ؟ ألم يقرروا أن النفس لا تنقسم ؟ إننا نجد هذه النظرية لا تخلو من الصعوبات أيضاً . ولقد وضع (داروين وكروسبي) نظرية دعيت بالنظرية الروحية الكثيرة العناصر الحيوية فنقول : (الحياة ناشئة عن الروح والجسد معاً أي عن عنصرين . فلا يعتبر الجسم مادة عاطلة لا حياة فيها ، بل هو مستعمرة لحجيرات كثيرة كل منها لها حياتها الخاصة ؛ والنفس توجد هذه الحياة الكثيرة العناصر وتوجهها